دور البطيخ ببغداد ودمشق

في عهد العباسيين

بقلم الاديب حبيب زيات

كان لبيع البقل في غالب المدن والبلاد اسواق او عَرَصات خاصة تسمى «دور البقل» ، وعليها ناظر لاستيفاء الحقوق السلطانية. ويظهر ان بيع الفواكه لم يكن داخلاً فيها ، بل له دور منفردة تدعى «دور البطيخ» ؛ إمّا لان البطيخ كان اول ما بيع فيها ، وإمّا لانه كان يشغل اكثر هذه الاسواق لوفرته وكبر حجمه ، فغلبت التسمية به على سائر الفواكه. ولذلك لمّا مدح ابن الرومي ابا الصقر اسماعيل بن بلبل ، وزير المعتمد ، بقصيدة نونية طويلة اولها :

أجنت لك الرملَ اغصان وكثبانُ فيهنَّ نوعان تفاح ورمانْ
غصون بانٍ عليها الدهرُ فاكهة وما الفواكه مما يحمل البانْ

سمى الناس هذه القصيدة «دار البطيخ» لكثرة ما فيها من ذكر الفواكه. قال ابن الطقطقي : وكان الموضع الذي تباع فيه الفواكه يسمى دار البطيخ[1]. وفي ياقوت : دار البطيخ محلة كانت ببغداد تباع فيها الفواكه[2].

وكانت سوق البطيخ في بغداد تقسام اولا في درب الاساكفة ، ودرب الزيت ، ودرب العاج . ثم نقلت في ايام المهدي الى الكرخ ، كما جاء في ياقوت ايضاً ، وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي[3].

على ان هذا الاسم لم يكن خاصًا ببغداد وحدها بل كان شائعاً في كثير

---

١) الفخري ، ص ٢٢٦

٢) معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥١٧ ، طبعة ليبسيك

٣) G. Salmon, *Introduction topographique p. 110 et 153*

من البلدان . وكانت العامة تقول فيه « دار بطيخ » باسقاط لام التعريف تخفيفاً على سبيل التركيب المزجي . قال الثوري في كلامه عن الاهواز: « نهر البط نهر كانت عنده مراعٍ للبط فقالت العامة نهر بط كما قالوا دار بطيخ»[1] وقد جمع ابن لنكك بين اللفظين المركب المزجي الغير المنصرف للعلمية ، والمضاف ، حيث قال يهجو ابا الهيذام كلاب بن حمزة.

انت ابن كل البرايا لكن اقتصروا على اسم حمزة وصفاً غير تشميخ
كدارَ بطيخَ تحوي كل فاكهة وما اسمها الدهر الا دارُ بطيخ[2]

وكان بدمشق دار للبطيخ معروفة ببيع كل الفواكه ، ورد ذكرها عَرَضاً في عدة مواضع من كتب الاخبار والسير . وفيها اكتسب الوأواء الدمشقي شهرته الذائعة. قال الثعالبي: «من اعجب شأنه ما اخبرني به ابو بكر الخوارزمي قال : كان الوأواء منادياً في دار البطيخ بدمشق ينادي على الفواكه وما زال يشعر حتى جاد شعره وساء كلامه . »[3] وكانت وظيفة استيفاء الرسوم فيها مختصة في آخر عهدها بارباب السيوف ، يُولّى بها اجناد بتواقيع عن النائب بدمشق. وتسمّى هذه الوظيفة « شدّ دار البطيخ والفاكهة»[4] ولها ديوان خاص ورد ذكره في حوادث سنة ٦٩٧ من تاريخ الجزري . قال بلهجته العامية : « فيها انتقم الامير سيف الدين جاغان من نائبه بدمشق نائب الشد ... ومن ديوان دار البطيخ وانتقم منهم غاية الانتقام وصادرهم واخذ جميع ما يملكوه[5].»

على اننا لا ندري ما كان مقدار هذا المكس الذي كان يؤخذ على الثمار والبقول ، لعدم احتفال الكتبة والمؤرخين بالتنبيه عليه ، وعلى بقية المكوس الديوانية . ولعله كان ثقيلاً كسائر الضرائب والمغارم . ولذلك لمّا دخل السلطان نور الدين دمشق ، في العاشر من صفر سنة ٥٤٩ ، رأى ان يتقرّب

١) فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٣٨٤ ، طبعة ليدن
٢) يتيمة الدهر للثعالبي ، ج ٢ ص ١٢٢
٣) يتيمة الدهر ، ج ١ ص ٣٠٥
٤) صبح الاعشى للقلقشندي ، ج ٤ ص ١٨٨
٥) تاريخ حوادث الدهر وانبائه ، باريس ٦٧٣٩ ، ص ٢٤١

من اهلها باسقاطه في جملة حقوق اخرى سلطانية . قال ابن القلانسي: «ثم احضر بعد غد ذلك اليوم اماثل الرعية من الفقهاء والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم ... ثم تلا ذلك ابطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل والانهار . وانشأ بذلك المنشور وقرئ على المنبر بعد صلاة الجمعة»[1] وزاد الصفدي: «ابطال مكوس الكيالة وسوق الغنم وغير ذلك.»[2]

ومن الغريب ان ابطال هذه الحقوق لم يتجاوز اربع سنوات ، اواخر رجب سنة ٥٥٣ ، حتى قام قوم من سفهاء العوام وحسّنوا للسلطان نور الدين اعادة ما كان سامح به اهل دمشق من مكوس دار البطيخ وعرصة البقل والانهار ، وضمنوا له القيام بعشرة آلاف دينار عنها ، والحوا بذلك حتى أجيبوا . فلمّا شرعوا بفرضها على ارباب الاملاك والاعيان والرعايا ضجّ الناس واستغاثوا بالسلطان ، فامر باسقاطها ثانية وتعفية اثرها . واضاف الى ذلك ، فيما رواه ابن القلانسي ، ابطال ضمان الهريسة والجبن واللبن تبرعاً من نفسه[3].

والارجح ان المسامحة بهذه الرسوم لم تدم طويلاً ، لكثرة طمع الولاة في اموال الرعية وشدة حرصهم على جبايتها ، حتى من المحرمات والمنكرات كضمان الفجور والخمور والقيان[4]. فكان يجتمع منها على الرعية ما كانت ترزح تحت ثقله . فكانت الملوك من مدة لاخرى لا ترى بدّاً من التخلي عن البواقي منها ، او ابطال هذه المظالم باسرها . ولعل رسوم دار البطيخ كانت في ما اسقطه الملك العادل سيف الدين منها فيما نقله ابو المظفر سبط ابن الجوزي[5] . وجاء ابطالها ايضاً سنة ٨٠٦ ، على اختلاف في تاريخ الشهر ، ذكر المقريزي انه في تاسع عشر من جمادى الاولى نودي فيه في دمشق بابطال مكس الفاكهة والخضراوات[6] . ونقل ابن قاضي شهبه انه في ربيع الاول قال : «نودي فيه بابطال مكس الفاكهة والخضراوات بامر النائب . وكان يؤخذ على المقاثي

١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٧-٣٢٩ ٢) تحفة ذوي الالباب ، باريس ٥٨٢٧ ، ص ١٤٠

٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٢-٣٥٣ ٤) ذيل الروضتين لابي شامة ، باريس ٥٨٥٢ ، ص ١٢٠ والبداية والنهاية لابن كثير رواية الطبراني ، باريس ١٥١٦ ، ص ١٢١

٥) الوافي للصفدي ، ج ١ ص ٤١ ، باريس ٥٨٦٠

٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ص ٤١ ، باريس ١٧٢٧

وغيرها. وكتب في ذلك الى مصر ليجيء مرسوم السلطان بذلك . وذلك بعد ما احتال واشهد على المُقطَعين من الاجناد وغيرهم انهم راضون بذلك فجاء المرسوم على حسب مكاتبة النائب في ذلك وبطل واستمر[1].

واما موقع دار البطيخ بدمشق فلا شك انه تغير بتغير الدول وكثرة ما توالى على المدينة من الحريق والخراب والهدم والبناء . واقدم ذكر ورد لها ما رواه ياقوت من الاخبار القديمة عن شيوخ دمشق الاوائل زعموا فيها « ان دار شداد بن عاد في سوق التين يفتح بابها شاماً الى الطريق وانه كان يُزرع له الريحان والورد وغير ذلك فوق الاعمدة بين القنطرتين قنطرة دار البطيخ وقنطرة سوق التين.»[2] ولكن لم يعين احد فيما نعلم موضع سوق التين او التبن . ثم جاء القرن السابع للهجرة فذكر ابو شامة في كلامه عن وفاة معين الدين أنر سنة ٥٤٤ « ان قبره في قبته بمقابر العونية شمالي دار البطيخ الآن»[3] وليس بيدنا كذلك ما يعين على تحقيق مكان هذه المقابر التي كانت دار البطيخ عن يمينها ، فلا ندري هل كانت قريبة ام بعيدة عن عمارة بهادر التي نص ابن قاضي شهبه على انها كانت سنة ٧٩٣ خلف دار البطيخ . وغاية ما نعرفه ان بيت بهادر هذا كان وقتئذٍ في سوق الغنم[4].

واخر ما ورد ذكر دار البطيخ بدمشق مع بعض تعيين لموقعها في قول البدري من المتأخرين «ومن محاسن الشام تحت قاسيونها . . . وهي ساحة سماوية . . . تحفّها الدور وتعلوها القصور . . . فيها دار البطيخ الذي (كذا) يباع فيه جميع فواكه البلد. وبه العين المشهورة المُجتمَع[5] على برودة مائها وعذوبته وخفته.»[6] ومن ثم يترجح ان دار البطيخ كانت قريبة من سوق خان الباشا المشهورة اليوم ببيع الفواكه ، ان لم تكن هي هي بعينها.

١) الذيل ، ج ٢ ص ٢١٣-٢١٤ : باريس ١٥٩٩ ٢) معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٨٩
٣) كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٦٤ ، طبعة مصر ١٢٨٧
٤) الذيل ، ج ٢ ص ٦٥-٦٦ [وداره موضع فندق الخشب قبلي دار البطيخ (ترجمة سلم بن عُتبة في ابن عساكر نسخة مكتبة الملك الظاهر المجلد السادس عشر ، ٥٠ ل]
٥) في المتن المطبوع « وبه العين المشهورة بالمجمع » وهو غلط
٦) نزهة الانام في محاسن الشام ، ص ٦٣